العرب
الأربعاء 2020/05/13
السنة 42 العدد 11701

العزلة المرتبكة: حيرة المدن في قراءة سكانها

لم تعد الأماكن ملهمة ولم يعد الأدباء قادرين على قراءة مدنهم

جميع المبدعين تغنوا بالمدن أو نفروا منها، شعراء وكتابا ومغنين ورسامين ومصورين وراقصين وغيرهم، علاقة وثيقة تجمعهم بالمدينة، ففيها نسيج المجتمع المختلف من حكايات وصور وأشخاص وأحداث، لكن كل ذلك اليوم موضوع على المحك بسبب أزمة كورونا وفي ظل حالة الحجر الصحي وخلو الشوارع من الناس، في مشهد استثنائي.

كرم نعمة
كاتب عراقي
مقيم في لندن

على مدى التاريخ كانت المدن هي من تقرأ سكانها عندما تلمهم كأم رؤوم، أو حتى عندما تكون طاردة لهم. لكن تحت وطأة الحجر الصحي، أصيبت متراجحة من يقرأ مَن بالارتباك والضرر، فلا المدن قادرة على قراءة سكانها، بينما قراءة الناس لأحوال المدن تصل عادة متأخرة وغير جديرة بالوفاء، إن لم تحدث ضررا.

لقد ترك الكتاب والشعراء شفاههم على زجاج المدن، منذ أن لعبت الفراشات على لحية والت وايتمان، وأعلنت سلفيا بلاث احتجاجها الشعري على رجال المدن بانتحارها، ولم يجد بدر شاكر السياب في منزل الأقنان ما يجعل البصرة رحيمة به، وجعل جبرا إبراهيم جبرا طرقات المدن مفتوحة من القدس إلى بغداد في "البئر الأولى".

كانت موسكو بنسائها وكحولها وبردها ومخللاتها ملهمة الشاعر العراقي حسب الشيخ جعفر وهو يكتب سيرة مدينة في "رماد الدرويش". ثم هل يمكن أن يكون ثمة معادل معاصر لمحمد شكري في طنجة تحت الحجر المنزلي مثلا؟

الروائية الإيطالية فرانشيسكا ميلاندري من خلال نظرتها المتشائمة تكسر ثقتنا بالحياة قبل ثقتنا بأقرب الناس إلينا

كان كامل المقهور يستعيد أجواء ضاحية الظهرة وهو يدون لسيرة نادرة لطرابلس الغرب آنذاك، لكن لا معادل للمدن ومدوني سيرها في كل الذي سيكتب تحت وطأة كورونا.

بل إن كل ما كتبه أبوزيان السعدي مثلا كان نتاج ساعات طويلة قضاها في مقاهي تونس يتأمل المارة وكيف تضيع في ضجيج المدينة.

أي مدينة سنجدها عند عبده خال وهو يعيش عزلته لنضعها مقابل مدينة جدة التي كانت "ترمي بشرر"! ومن أين لرجاء عالم من يلهمها سيرة مدينة مثلما فعلت في "طوق الحمام" عندما دونت سيرة جدها الذي كان يجد رزق يومه تحت سجادة صلاته، فحتى مكة ملتقى الثقافات والشغف الروحي أقفلت أبوابها، يكفي هنا أن نعرف أن السعودية غلظت من شدة العقوبات على كل من يكسر الحجر في التجمعات، مهما كان مسوغها الاجتماعي أو الديني.

السفر والمنزل

لم تعد المدن في عزلتها ملهمة، مثلما لم يعد البشر قادرين على قراءة مدنهم، وكل ما يقدم مجرد بوح ذاتي لا يتخطى حدود الغرف الصغيرة والعالم الرقمي المحصور في الكمبيوترات المحمولة.

النظرة المتشائمة التي قدمتها لنا الروائية الإيطالية فرانشيسكا ميلاندري -على أهميتها الإبداعية- لن تدرج في تاريخ الأدب مع الأعمال العظيمة، مع أنها كانت قراءة عميقة للنفس وما يمكن أن تشعر به كاتبة على مستوى ميلاندري، لكنها اكتفت بحدود شقتها في روما وفقدانها للأمل.

ولأنها من بين أوائل الأدباء الذي دونوا سيرتنا الجمعية مع كورونا والحجر المنزلي، صارت مثالا متميزا في قراءة فقداننا متراجحة المكان والمكين.

في الواقع، صنعت هذه الروائية الإيطالية كابوسا لغويا أشد وطأة من فايروس كورونا نفسه، عندما جسدت حياتها المعزولة في إيطاليا، بوصفها متقدمة علينا كابوسياً، مثلما الصين متقدمة على إيطاليا في تفشّي الوباء آنذاك، لتعدنا خلال أسابيع بأن نعيش ما تعيشه هي الآن مثل أي إيطالي آخر.

تكسر فرانشيسكا ميلاندري ثقتنا بالحياة قبل ثقتنا بأقرب الناس إلينا، عندما تعدنا بأن كورونا سيكشف لنا طبائع جميع المحيطين بنا في وضوح ليس مثله وضوح.

بالنسبة إليها أيضا، المثقفون الذين لم تكن تخلو الأخبار منهم سيختفون، وتفقد آراؤهم بغتة أيّ قيمة، البعضهم منهم سيلوذون بمنطق سيأتي مفتقرا تماما إلى الإحساس بالناس فيتوقف الناس عن الإنصات إليهم "والذين كنتم تتجاهلونهم هم الذين سيتبين أنهم يبثون الطمأنينة والسماحة وأنهم أهل للثقة، وعمليون، وقادرون على قراءة المستقبل".

> الأخبار عما أصاب المدن جديرة بإعادة قراءتها اليوم وفي المستقبل، واكتشاف إن كانت ستعود كما عرفناها

سنجد معادلا موضوعيا لفرانشيسكا ميلاندري، بنفس المقياس الذي وضعه ت. س. إليوت، في الكاتبة الألمانية هاريت كولر التي عشقت طول حياتها السفر، لكنها ألفت كتابا في الحجر المنزلي تحرض فيه على الاحتفاء بالبقاء في المنزل.

أدركت كولر التي اعتادت السفر كثيرا، في النهاية أن الأمر لا يتعلق بكون الإنسان في مكان آخر فالبقاء في المنزل هو أكثر من مجرد عدم السفر، إنه أسلوب تجاه الحياة. لذلك لم يكن هناك وقت أفضل من الآن لصدور كتابها الذي يتمحور حول البقاء في المنزل.

فإذا كان المرء سعيدا بما لديه فسوف يتوقف عن تمني أن يكون في مكان آخر.

كتبت المؤلفة أن الحنين إلى الوطن وحب السفر عاطفتان متشابهتان للغاية، إن كلاهما لا يتعلقان كثيرا بمكان معين ولكن بشعور داخلي، "إن كلاهما يشيران إلى شيء مفقود".

وتقول "عشق السفر لا يعني ببساطة أنك تريد أن تكون في مكان آخر، ولكن أنك تريد أن تختبر شيئا مختلفا في مكان آخر للهروب من نفسك اليومية".

إذا كانت الكتابات قد اكتفت بتلك القراءة المعزولة وهي أشبه ببوح ذاتي، على جماليته وأهميته، في مدونة التاريخ عن كورونا والعزل المنزلي، فإن الأخبار عما أصاب المدن جديرة بإعادة قراءتها اليوم وفي المستقبل. لأنها تمثل الصورة الأوضح عما جرى، وأكثر مما ستصفه المدونة الأدبية.

حال المدن ومستقبلها

لقد تحولت المدينة القديمة في تونس التي كانت تكتظ بالساهرين، إلى مدينة أشباح بمحلاتها المغلقة ودروبها الخالية.

ويتأسى أهالي مراكش على ضجيج مدينتهم التاريخي، ويقول أستاذ مدرسة يعيش وحيدا في مراكش لوكالة الصحافة الفرنسية، "كل شيء موجود، لكن في المقابل لا أستطيع التنقل لتناول الإفطار مع والدي".

ويضيف "الوضع أكثر غرابة في الليل، فلا مقاهي ولا مصلين في المساجد... لم يسبق أن شهدنا هذا".

وفي لبنان باتت أسطح المباني المزدحمة بخزانات المياه وهوائيات التقاط القنوات الفضائية، في الأسابيع الأخيرة مسرحا لمشاهد غير اعتيادية أبطالها السكان المحجورون المتعطشون إلى الحرية والهواء العليل.

وأمضى مصور وكالة الصحافة الفرنسية جوزف عيد أسابيع في صعود السلالم لاكتشاف الطريقة التي غزا بها السكان هذه المساحة الجديدة مع ما توفره من إمكانات لا متناهية.

أبوظبي عبرت عن ارتياحها من المركبات والناس عندما تنفست ملء رئتيها في أشهر الحجر الصحي، وأعلنت عن تسجيل تحسن مستمر في جودة الهواء مع استمرار الإجراءات الاحترازية للسيطرة على جائحة فايروس كورونا وانخفاض حركة المرور والأنشطة البشرية الأخرى.

في المقابل كشفت كورونا الوجه المشوه والرث للمدن الثرية، ففي جنيف، إحدى أغلى المدن في العالم وقف آلاف الأشخاص في صفوف طويلة للحصول على حصص غذائية مجانية في وقت كشفت فيه أزمة الوباء عن فقراء لا يظهرون عادة في المدينة.

في هذه المدينة السويسرية الشهيرة ببنوكها وصناعة الساعات الفاخرة ومحلاتها الراقية، بدأ الناس بالاصطفاف منذ الساعة الخامسة صباحا للحصول على الطعام، هكذا تساوت المدن، وكأن جنيف صورة طبق الأصل من أي مدينة من مدننا التي يعيش على أطرافها مئات المهجرين!

المدن ليست مجرد بنايات صلدة

بينما اكتسب أغلب الفرنسيين وزنا زائدا منذ بدء إجراءات الإغلاق في مارس الماضي، في إشارة ستجعل التاريخ يتحدث عن الفرنسيين البدناء في أشهر كورونا، وليس أولئك الذين يجعلون من الطعام الصحي شعارا يميزهم عن جيرانهم البريطانيين أحفاد شكسبير.

من قال إن نيويورك تنام، حدث ذلك للمرة الأولى تحت وطأة كدمات كورونا عندما أوقفت شبكة المترو رحلاتها الليلية، في خطوة هي الأولى من نوعها منذ انطلاق الخدمة قبل 115 عاما في نيويورك.

ورغم أن شوارع شيكاغو باتت بجزء كبير منها فارغة بسبب تفشي الوباء، لكن أزيز الرصاص لا يزال يُسمع في بعض الأحياء الأكثر فقرا في المدينة إذ إن الوباء لم ينجح في تطويق آفة جرائم القتل.

حتى تفكير المدن تغير "من قال إنها لا تفكر" صارت تبتكر البدائل حتى وإن تطلب الأمر التنازل عن إبداعها، فقد تحوّل مصنع "بيستري ستار" لإنتاج حشوات المخبوزات الراقية الذي تملكه عائلة بيكو في لوريل بولاية ماريلاند الأميركية إلى ورشة عمل لإنتاج معقمات اليدين في ظل تفشي وباء كورونا.

ماذا عن مستقبل المدن، هل يمكن لها أن تعود كما هي في علاقتها مع البشر؟

تبدو إجابة المهندس المعماري ستيفانو بويري المعروف بتصميمه ناطحات سحاب صديقة للبيئة في ميلانو، أقرب إلى الحقيقة منها إلى قراءة المستقبل، لأنه يرى من الحماقة الاعتقاد بأن الحياة ستعود ببساطة إلى ما كانت عليه قبل أن يجبر كورونا البلاد على الإغلاق.

بيت العود ينظم رحلة ثقافية وفنية افتراضية

أبوظبي – أعلنت دائرة الثقافة والسياحة – أبوظبي عن تنظيمها لسلسلة "بيت العود في ضيافتك"، وهي جلسات موسيقية حية افتراضية تحييها نخبة من موسيقيي بيت العود بمشاركة عازف العود العراقي نصير شمة، لبث رسالة أمل في المجتمع خلال إجراءات التباعد الاجتماعي.

> سلسلة «بيت العود في ضيافتك» تقدم حفلات افتراضية كما تعرف الجمهور على تاريخ الموسقى كركن من الثقافة العربية

وتأتي الجلسات الموسيقية استكمالاً للسلسلة الموسيقية التي تم إطلاقها عبر الإنترنت في أبريل الماضي، وشهدت إقامة عدد من الحفلات الموسيقية، بما في ذلك حفل "القانون الجديد"، و"غناء شهر رمضان المبارك"، وحفل "نصير شمة والأصدقاء"، الذي قدم من خلاله موسيقيو بيت العود من جميع دول العالم حفلاً متكاملا من منازلهم بإشراف فني من نصير شمة، حسب بيان للدائرة.

سيتم بثّ الجلسة الموسيقية عبر الإنترنت يوم الأربعاء 13 مايو على الساعة الثامنة والنصف مساءً بتوقيت الإمارات، بعنوان "قصة العود" التي تحتفي بتنوع الآلات الموسيقية المستخدمة في الموسيقى العربية الكلاسيكية، حيث سيتم استعراض مجموعة كبيرة من الآلات التي يتم تدريسها في "بيت العود" مثل العود والكمان والقانون والتشيللو.

تستمر دائرة الثقافة والسياحة – أبوظبي في تقديم جلسات افتراضية قادمة لكل من "بيت العود" وموسم موسيقى أبوظبي الكلاسيكية، ليتضمن حفلاً بعنوان "يونيفرسال موزارت" في 3 يونيو لتسليط الضوء على عبقرية فولفجانج أماديوس موزارت الموسيقية، يقدم الحفل نصير شمة مع موسيقيين من بيت العود، إلى جانب عدد من العازفين الكلاسيكيين من أوروبا وآسيا، مع التركيز بشكل خاص على المؤلفات المستوحاة من العالم العربي.

وسيكون للغناء العربي الكلاسيكي نصيب من برنامج الحفلات الافتراضية في 17 يونيو، كجزء من تكريم بيت العود للغناء العربي الكلاسيكي، بصفته مركزاً للهوية الثقافية والتراث الموسيقي في العالم العربي، حيث يحيي نصير شمة هذا التراث العربي الغني إلى جانب عدد من خريجي بيت العود ومعلميه المتميزين، من خلال تقديم تجربة موسيقية وغنائية استثنائية تكريماً للأصوات العربية العظيمة مثل أم كلثوم وفيروز وغيرهما.

وقال نصير شمة "إنه من المهم في مثل هذه الأوقات الصعبة التي يمر بها العالم، تعزيز الشعور بالمجتمع والعمل الجماعي ونشر الأمل، وإنني أرى بأن أفضل طريقة لبثّ الأمل في المجتمع هي من خلال الموسيقى، ومن هنا رأينا تنظيم سلسلة 'بيت العود في ضيافتك' والتي أتاحت لي ولزملائي من الموسيقيين فرصة الوصول إلى الناس في بيوتهم حول العالم بأمان، لمشاركة ونشر رسالة الأمل والتضامن عبر ألحان كلاسيكية وتجارب غنائية لا يمكن تفويتها لإعطاء المشاهدين جرعة موسيقية مفعمة بالأمل".

الجدير بالذكر أن نصير شمة مايسترو عراقي عالمي، وعازف عود متميز حائز على أكثر من 60 جائزة ووساماً، وأصدر عدداً من الألبومات الموسيقية في إيطاليا ومصر والجزائر والمملكة المتحدة، مع أكثر من 60 مقطوعة موسيقية. حصل على لقب "فنان اليونسكو من أجل السلام" و"سفير النوايا الحسنة" لدى جمعيات الهلال الأحمر والصليب الأحمر الدولية، ويواصل شمة تسخير موهبته لنشر رسالة الأمل في المجتمع إلى جانب عدد من خريجي بيت العود الموهوبين ومعلميه بمن فيهم شيرين تهامي، بسام عبدالستار، محمد ضحي، أحمد طه، علي الدريدي وفطين كنعان.

تزامنا مع رفع الحجر «غونكور» تعلن عن جوائزها

باريس – قامت أكاديمية "غونكور" بالإعلان بشكل مبكر عن جوائزها لهذا العام، وذلك بالتزامن مع أول أيام رفع تدابير الحجر الصحي في فرنسا، حيث تسعى الجائزة من خلال هذه الخطوة إلى دعم باعة الكتب المتأثرين بشدة جراء الوضع الاقتصادي الذي خلّفه انتشار فايروس كورونا المستجد.

هكذا، منحت جائزة "غونكور" عن الرواية الأولى لمايليس بيسري، منتجة الراديو، عن روايتها "لوتيير تون"، وتتناول هذه الرواية، التي صدرت في فبراير الماضي لدى دار النشر "غاليمار"، الأيام الأخيرة للكاتب المسرحي الإيرلندي صمويل بيكيت في دار تقاعد باريسية تسمى "Le Tiers-temps".

وتنافس روائيان آخران على نيل هذه الجائزة. ويتعلق الأمر بكل من آن بولي برواية "قبل أن أنسى" وكونستانس ريفيير عن رواية "فتاة بلا قصة".

وتم منح جائزة "غونكور" للقصة القصيرة للكاتبة آن سيري عن مجموعتها "في قلب صيف ذهبي".

أما جائزة "غونكور" للسيرة الذاتية، فقد آلت إلى المخرج وكاتب السيناريو تييري توماس عن "هوغو برات، صفة بصفة"، في حين منحت جائزة الشعر للشاعر والمؤلف ميشيل ديغي إزاء مجموع أعماله.

واختار أعضاء أكاديمية "غونكور"، الذين يمنحون الجوائز الشهيرة للمؤلفين الناطقين بالفرنسية، الإعلان عن جوائزهم الربيعية في اليوم الأول من رفع الحجر الصحي، في الوقت الذي كان ذلك مقررا في يونيو، وهذه الخطوة كما صرح القائمون على الجائزة تأتي "لمواكبة إعادة فتح المكتبات الذي طال انتظاره ودعم المهنة" التي تأثرت اقتصاديا.

ونذكر أن جائزة "غونكور" تعد الأهم من بين الجوائز الأدبية الفرنسية، ليس لقيمتها المادية وإنما نظرا إلى قيمتها الرمزية الكبيرة، إذ تمثل دفعا تجاريا كبيرا لدور النشر، فالكتاب الفائز بهذا التكريم تباع منه أكثر من 345 ألف نسخة في المعدل، ما يحقق له رواجا واسعا.